المنهج النبوي في التعامل الاسري

فهد طلال سليم الخالدي
مؤسسة الفيضي الشهيد/للتربية والتعليم والثقافة الإسلامية

تاريخ تسليم البحث : 2006/6/15 ؛ تاريخ قبول النشر : 2006/7/26

ملخص البحث :

تناول البحث المنهج النبوي في تربية الأسرة من خلال الحديث النبوي الشريف (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) . وانقسم البحث إلى قسمين ، القسم (خيركم خيركم لأهله) تناول فيه المنهج النبوي في تربية النساء والزوجات والأولاد ، والقسم الثاني ، تناول فيه كيفية تعامل النبي ﴿ﷺ﴾ مع زوجاته وأطفاله لكي يكون أسوة للمسلمين خاصة وللعاملين عامة .

Prophets Attitudes Towards Family Interaction

Fahd Talal Salim
AL-Faidhi Institution

Abstract:

The current research deals with the prophet attitude towards family interactions on the basis of the following Hadeeth :the best of men is the best with his own family and I am the best among you to my family .the research falls into two main sections: the first section "the best of men is the best with his family" dealing with the prophet way in breeding women and wives and children. The second part viewed how the prophet dealing with his wives and children to set an idol for Muslims in particular and the others in general.

المقدمة:

الحمد لله عظيم السلطان وقديم الاحسان والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيد الاكوان واشراق الزمان محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه أهل التقوى والأيمان :

* ثلاثة وستون عاماً ، عاشها صاحبها الممجد ﴿ﷺ﴾ في جلال يبهر الألباب ، وفي جمال يفتن الأفئدة .سنوات كانت بصدق ربيعاً مزهراً في عمر البشرية وقبساً وضاء في تاريخ الأنسانية .
* نفس زكية رُكبت في أحسن تقويم ، وذات طاهرة تألقت بخصال فطرها على الكمال خلاُقها الحكيم ، لتكون للحياة نوراً وللأحياء مثلاً . فكل لحظة أمضتها الحياة في كنفه ﴿ﷺ﴾ كانت درج ارتقاء نحو السمو والمجد . لأنه لم يكن ﴿ﷺ﴾ مجرد أنسان يجيء إلى الدنيا فيمكث فيها ما يمكث ثم يرحل مع الراحلين . وإنما كان رسول رب العالمين إلى العالمين محور التقاء بين أهل الأرض وأهل السماء .
* وغدا من قال عنه ربه ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1] ، طاقة للفيوضات الربانية ، وفيضاً من الأشراقات النورانية . فهو المعين الذي لاينضب ، والنبع الصافي الذي لايتكدر والمورد الذي لا ينقطع . بحر من الأنوار زاخر ، وسماء من الصفاء ناصعة . ثم خبرني بربك بعد كل هذا : كيف لا يحتار أولو الألباب في مدح كماله ؟ وكيف لا يعجز أولو البيان عن وصف جماله ؟
* الحق أقول ... إن الخوض في دراسة الشخصية النبوية أمر غير يسير فهي ليست كتابة عن شخصية رجل فاتح أو مخترع ، أو مؤلف ، أو غير هؤلاء . أنما هو الحديث عن ذات طغت نورانيتها على طينيتها ، ولها بلفظ الجلالة التعلق ومن الأسماء الحسنى التخلق :

تفديك نفسي أبا الزهراء من بشر يمشي على الأرض بين الناس قرآنا

* فأحمد الله تعالى أن وفقني للوقوف عند شخصية النبي ﴿ﷺ﴾ في بيته . لنحيا في دائرة ضوئها ، وقتاً مباركاً تفيء علينا فيه من أسرارها ، وعطاياها المفعمة بنور الله جل وعلا. وذلك من خلال دراسة الحديث الشريف ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)) بشقيه، المتناولين خيرية المسلم مع أهله وخيرية النبي ﴿ﷺ﴾ في بيته .

فشرعت بفضل الله العليم في تقسيم هذا البحث الموسوم:((وأنا خيركم لأهلي –دراسة وتأمل–)) ، إلى مبحثين ، تكون المبحث الأول : ((خياركم خياركم لأهله)) من مطلبين : تناول مطلبه الأول ((علاقة هذه الخيرية بأيمان المرء)) .

فيما تعرض مطلبه الثاني إلى ((علاقة الخيرية بخيرية المرء لأهله)) . ثم عرجت إلى المبحث الثاني : ((وأنا خيركم لأهلي)) مقسماً إياه الى ثلاثة مطالب: أخذ المطلب الأول ((وأنا

---

(1) سورة النجم : الأية 18 .

خيركم لأهلي)) . أما المطلب الثاني فأنه عاين ((خيرية النبي ﷺ في معاملته للأطفال)) ثم تلاهما المطلب الثالث متحدثاً عن ((خيرية النبي ﷺ في معاملته لنسائه)) .

ثم ختمه بخاتمة جاءت مبينة لأهم اللطائف التي توصل إليها مسار البحث .

وأسال الله تعالى أن يبعثنا مع أولئك الذين قال فيهم تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم :8] وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المبحث الأول : خيركم خيركم لاهله

المطلب الأول : علاقة هذه الخيرية بإيمان المرء

إن المتأمل في حديث النبي ﷺ ((أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائكم)) [1] يلمح أشارة لطيفة في الواو العاطفة ، وهي عطف الخاص على العام ، حيث عطف الخيرية المتعلقة بخيرية المرء لنسائه على أيمانية المرء الكاملة المتأتية من حسن خلقه . ويوضح هذا أكثر الحديث النبوي الأخر ((إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)) [2] .

فالتدرج الرتبي في الحديث الشريف يبدأ بتعامل المرء مع نسائه ، لأنه إن أحسن الشرة مع نسائه ومع أهل بيته نال الخيرية ، فأن تعدت عشرته الحسنة إلى غير أهله خارج بيته رقى بذلك الى مرتبة الأيمانية الكاملة .

والتي تكون مدخلاً لفقه الصلاة والصيام وسائر العبادات ، لأن أكثر ما يثقل الميزان يوم القيامة حسن الخلق ، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ [3] .

فالأخلاق نبع متدفق جامع لكل فضيلة ، وراد لكل رذيلة ، والتنافس في مراتب الإيمان إلى الكمال أساس وبناء على القيم والأخلاق التي بعث بها النبي ﷺ ، ومنها حرصه عليه الصلاة والسلام لكمال هذا البناء ، ولكن أي بناء هذا؟ هل هو بناء للحياة الدنية ؟ وهل هو بناء للذات الإنسانية ؟ .....

---

(1) رواه أحمد في مسنده ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب باقي المسند السابق ، رقمه 9725 . ورواه الترمذي ، كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، رقمه 1082 . ورواه أبو داود ، كتاب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، رقمه 4062 .

(2) رواه الترمذي ، كتاب الأيمان عن رسول الله، باب ما جاء في أستكمال الأيمان وزيادته ونقصانه،رقمه 2537 .

(3) ((ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامه من خلق حسن)) ، رواه الترمذي ، كتاب البر والصلة عن رسول الله ، باب ما جاء في حسن الخلق ، رقمه 1925 .

فالأنسانية مراتب تترقى بها ويشير إليها الناس فيما هو متعارف عليه ، والنبي ﴿ﷺ﴾ يفتح بابا لتجمع الأخلاق ألاوهو الخلق الحسن . فليس من العسير على المؤمن أن يكون كاملا في أخلاقه بل إلى الأعلى في أيمانه . وهنا تشرق أشارة في حياة الداعية الأعظم ﴿ﷺ﴾ في تكميل المؤمنين وتزينهم وهي : من أين هذا الكمال ؟ ولاجواب إلابمن كملت له المحامد والصفات ، وجلت له الشمائل والخصال ، سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ .

ويمكننا أن ندرك هنا موازنة بين حسن الخلق والعبادات ، وتفضيله علسيها من حيثية معينة ، فإن صام المسم مثلا :لم ينتفع الخلق بصيامه ، لأنه أمر خاص بينه وبين ربه . أما إن حسن خلقه فإنه سيكون نافعا لمن يعامل ، غير أفعاله بقدر أذيتها للآخرين. فإن تاب الزاني مثلا : تاب الله عليه ، لأن أذية الزنى أقتصرت عليهما فقط . أما أن تاب المغتاب فإن الله لن يقبل توبته حتى يستسمح صاحبه الذي أغتابه . قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : ((الغيبة أشد من الزنا)) . قالوا : كيف ؟ . قال : ((الرجل يزني ثم يتوب ، فيتوب الله عليه ، وأن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه)) [1] .

لذا نرى أن الله عز وجل كرم العمل المتعدي خيره إلى الآخرين أكثر مما كرم العمل المقصور نفعه على عامله . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في أكثر من موطن ، نحو قوله تعالى في ميثاق بني أسرائيل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[2] . فإنه قدم ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ على أقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فمن هذا المنطلق جاء تعلق الإيمان الكامل بحسن خلق المرء ، فحيث وجد حسن الخلق وُجد الأيمان الكامل . وهذه نقطة ارتكاز جليلة إنبثق منها التكريم النبوي المتميز . وذلك في قوله ﴿ﷺ﴾ : ((أن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً)) [3] ، وأيضاً قوله ﴿ﷺ﴾ : ((إن المؤمن ليدرك بحسن خُلقه درجة الصائم القائم))([4]) .

خلاصة القول فيما ذُكر ، أن المسلم إذا حسُنت معاملته لإخوانه المسلمين ، كان محمودا عند الله جل في علاه وقد يكمل إيمانه بحسن خلقه معهم ، ويزداد ألإضلية عند الله إذا ما رافقه حسنُ خلقه إلى إكناف داره ، وحسنت معاملته مع أهله . فالأنطلاقة الأولى نحو كمال

---

(1) الترغيب والترهيب ، الأمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، تحقيق علي عاشور، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة الطبع 2001 م : 3 / 307 .

(2) سورة البقرة : الآية (83) .

(3) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، باب ما جاء في معالي الأخلاق ، رقمه 1941.

(4) رواه أبو داود ، كتاب الأدب ، في حسن الخلق ، رقمه 4165 .

الأيمان تبدأ من بيتك ، فخيرية المسلم مقرونة بخيريته مع أهله ونسائه ، وكمال أيمانه مرهون بحسن خلقه . فإذا أنتهج المؤمن الهدي النبوي الشريف ، تحققت له الحياة التي يقول عنها الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [1] .

ثم تتواصل هذه الحياة مثمرة في منهجة حياة المسلم لتصل إلى مراتب الكمال ، ويفتح النبي ﴿ﷺ﴾ باب الكرامة لهذه الأمة الكريمة ، من خلال إدراك معنى (أحسنهم) وليس (حسنهم) أي التفضيل ، لندرك حالنا على أي ميزان وضعنا النبي ﴿ﷺ﴾ لأجل التفاضل ؟ وأين هو المفضول ؟ . فتأمل .....

المطلب الثاني : علاقة الخيرية بخيرية المرء لأهله

القارىء لحديث النبي ﴿ﷺ﴾ : ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))[2] لأول وهلة ، يخالجه سؤال هو : لماذا تعلقت الخيرية بخيرية المرء لأهله ؟ . فمما عُلم أن العمل إذا خرج نفعه إلى غير عامله ، كان مقربة عند الله أكثر من غيره . فمثلا قوله ﴿ﷺ﴾ : ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) [3] ، مفهوم العلية ، لإن الخيرية ما تعلقت بمعلم القرآن الإبعدما تعلمه وعلمه ، فاثر العمل قد تعدى إلى الآخرين– مع قدسية ما يتعلمون – .

فهل ثمة سر في تعلق الخيرية بخيرية المرء لأهله بتاء على ما تقدم ؟ وأين تكمن علية التعلق إذاً ؟ نعم . اذا لم ننظر للحديث من هذه الحيثية ، وأنما من حيثية اخرى ، هي السر في هذا التعلق . وهي : أنا الأنسان في داره يظهر على حقيقته ، ويبين معدنه ، وينكشف باطنه . فدار المرء هو المختبر الكاشف لشخصيته والمظهر لبواطنه ، فيه يفرح ، وفيه يحزن ، وفيه يغضب ، وقديما قالوا (حقيقتك تظهر عند غضبك) . ناهيك عن أبتلاءات الدنيا وتقلباتها التي فيها يعلمتسليمه من سخطه على ما قدر عليه . وهذا ما فسره سيدنا عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ بقوله لذلك الذي شهد بالصدق لأحد المسلمين : أسافرت معه ؟ قال : لا . فقال عمر فأنت الذي لا علم لك به ، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد ! ورد شهادته فيه . ففي السفر يُعرف الصالح من الطالح . لأن المسافرين يقضون الوقت سوية طوال سفرهم ، فيعرف البعض الأخر ما يحب وما يكره ، وما يستحسن من الأمور وما يستقبح منها . وقس على هذا صحبة السجن

---

(1) سورة الأنفال : الآية (24) .

(2) رواه الترمذي ، كتاب المناقب عن رسول الله ، باب فضل أزواج النبي ، رقمه 3830. ورواه أبن ماجة، كتاب النكاح ، باب حسن معاشرة النساء ، رقمه 1967 .

(3) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، رقمه 4639 .

أيضا ، وكذا البيت الذي هو شاهدنا هنا ، فكثرة ما يعتريك في بيتك من لحظات سعيدة أو شقية كفيلة بإبراز حقيقتك التي مهما حاولت إخفائها فإنها ستظهر ، كما قال الشاعر :

ومهما تكن عند أمرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

فلو تعلقت الخيرية على سبيل المثال بخيرية المرء في عمله فقط ، لأستطاع أحدنا أن يحسن معاملته مع أهله صنعته ، ويتماثل له بالخلق النبيل فينال بذلك درجة الخيرية .

لكن المرء في بيته مهما كان مؤمنا أو كافرا ، مسلما أو منافقا ، غنيا أو فقيرا ، أميرا أو مأمورا ، فأن بواطنه ستظهر وستبدوا مكامنه . فإذا أحسن التعامل مع أقرب الناس إليه الذين هم أهله فأنه لحسن ، وأذا أساء معاملتهم فأنه لسي ثم من ساء طبعه مع أهله ، فأنه سيكون سيئاً مع غير أهله من باب أولى . فعن أبي هريرة ﴿رضي الله عنه﴾ قال : قبل رسول الله ﴿ﷺ﴾ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا ، قال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ماقبلت منهم أحد فنظر إليه رسول الله﴿ﷺ﴾ ثم قال:((من لايرحم لايُرحم))[1].

وقد فطن الى فقه هذا الحديث الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ ، ومنهم عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ الذي أسس حكما عل روح هذا الحديث ، فحينما دخل عليه أحد ولاته ورآه محتبيا على قدميه يلاعب أطفاله ، قال : ماتفعل يا أمير المؤمنين ؟ أتلاعب أطفالك ؟ . والله إن لي ابناء كثيرين ما لاعبت أحدهم يوماً ! وإذا بعمر ينتفض غضباً ويقول : لم تلاعب أحدهم يوماً ؟ قال : لا . فقال : لئن لم تكن رحيماً بأهلك فكيف ستكون رحيماً بالرعية ؟ ! وعزله عن الولاية . لأن خيركم خيركم لأهله وشركم شركم لأهله .

المبحث الثاني : وانا خيركم لأهلي

المطلب الاول : وأنا خيركم لأهلي

ياترى ما هو سبب مجيء الشق الثاني من الحديث ؟ لماذا لم يكتف ﴿ﷺ﴾ بذكر الشطر الأول كما قال في حديثه الآخر ﴿ﷺ﴾ : ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ولم يقل : وأنا خيركم تعلما وتعليما ، وهو كذلك ﴿ﷺ﴾ ؟ .

ولعل أجابة هذا ؛ أنه لو أكتفى بقوله ((خيركم خيركم لأهله)) لطالعنا خاطر يقول : كيف يكون المرء خيراً مع اهله ؟ ، وماذا يتبع المسلم من الطرق التي تؤهله إلى الخيرية المواصلة إلى كمال الأيمان ؟ فجاء عطفه ﴿ﷺ﴾ جوابا لذلك .

وليكون تعامله ﴿ﷺ﴾ مع أهل بيته ، وحسن عشرته لنسائه ، ورقته مع الصغار ، صورة كاملة ، ونموذجاً فريداً على مر العصور ، وتعاقب الأجيال تلو الأجيال ، للمسلم مع اهله مهما

(1) رواه البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، رقمه 5538 .

كان عددهم كثيراًأو قليلاً ، ومهما كان جنسهم ذكوراً أو أناثاً ، تعددت نساؤه أو لم تتعدد ، ميسور الحال أو ذا عسرة .

إذ أن قوله ﴿ﷺ﴾ : ((وأنا خيركم لأهلي)) . جاء لغايتين ، أحدهما : ليؤكد أن معاملته ﴿ﷺ﴾ لأهله مثال للمسلم في بيته ، يتأسى به ، ويتعامل مع أهله كما تعامل نبيه ﴿ﷺ﴾ من قبله . فيكون بذلك قد سلك أسلم السبل وأفضل الطرق ؛ لأنه فعل ما فعله من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴿ﷺ﴾ فلا جدال في أنه الأحسن والأصوب .

والأخرى : حتى يكون المسلم متبعاً لرسوله ، مقلداً له حتى في المسائل الشخصية والعائلية . والتي قد يتبادر إلى الذهن أنه لاثواب لها كمداعبة النساء مثلاً ، لكن من داعب أهله بنية تقليد النبي ﴿ﷺ﴾ أُثيب عليه . أو كأنجاب الأطفال ، إلا أنه لو فعل ذلك بنية تطبيق حديث الرسول ﴿ﷺ﴾ : ((تزوجوا الودود الولود إني مُكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة)) [1] ، كتبت له حسنة .

أو يرى أنه لاثواب له ، لأنها من الواجبات . مثلاً : كإطعام أهله أو كسوتهم ، لكنه إن أطعمهم أو كساهم أستجابة لقوله ﴿ﷺ﴾ : ((وما أطعمت ولدك فهو لك صدقه وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة)) [2] كانت له صدقة .

إذا أدركنا هاتين الغايتين علمنا إشراقة في الحديث ، تواجه المسلم إلى العبودية مع أهله ، إقتداء بهدي النبي ﴿ﷺ﴾ ، الذي رسم عبودية المسلم في نواحي الحياة المتفرقة ، وكان له نواة في البيت أيضا ، والتي تنبت مع الأهل أو مع الأطفال ، ويكون فيها الخلق الذي يرتضيه النبي ﴿ﷺ﴾ . فلماذا لانرتضي لأنفسنا الإحسان إلى أهلنا ولو من أجل رسول الله ﴿ﷺ﴾ ؟ .

فكل ما يحدث في بيت المسلم ... متى كان وحيثما كان ... من أفراح وأحزان ، ومن رخاء أو شدة ، ومن ملاطفة أو مداعبة أو ملاعبة ، وقد حدث مثلها في بيت النبي ﴿ﷺ﴾ . وهذه حكمة المرسل العظيم تبارك وتعالى حيث جعل بيت الحبيب ﴿ﷺ﴾ يتعرض لكل ما يمكن أن يتعرض المسلم في بيته . حتى إذا ما جد أمر عند المسلم وداهمه خطب ، سارع لإلتقاط الصورة النبوية من تعامل الرسول ﴿ﷺ﴾ مع مثلية تلك الحالة ، ووظفها على أرض الواقع بفعل ما فعله ﴿ﷺ﴾ ، فيكون بذلك مقلداً لرسوله ومطيعاً له ﴿ﷺ﴾ . فضلاً على أنه قد تصرف التصرف الحكيم الذي قاده إلى الصواب بلا ريب كما تقدم .

---

(1) رواه أحمد ، كتاب باقي مسند المكثرين ، باب باقي المسند السابق ، رقمه 13080 .

(2) رواه أحمد ، كتاب مسند الشاميين ، باب حديث المقدام بن معدي كرب الكندي ، رقمه 16550 .

وعلى سبيل المثال لو أن مسلما مات ولده ، ماذا عساه يفعل؟ هو يريد أن يبادر بفعل، لكن ما هو الفعل الذي تكون عقباه رضا الله لا سخطه ؟ أيبكي أم لا ؟ أيخرج لدفنه أم لا ؟ فيبقى حائراً .

ألا أنه حينما يستحضر سيرة النبي ﴿ﷺ﴾ ويقف عند الظرف المماثل لظرفه فيجد أن النبي ﴿ﷺ﴾ عندما مات ولده إبراهيم حزن على فراقه وبكى عليه وخرج بنفسه ﴿ﷺ﴾ لدفنه وقال : ((إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا على فراقك يا أبراهيم لمحزونون لكن لا نقول ما يسخط الرب)) .

فما عليه بعد هذا إلا أن يقوم بما قام به رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، ويكون بذلك قد أطاع ربه وأستن سنة رسوله ﴿ﷺ﴾ ، ولم يحد عن طريق الشرع .

المطلب الثاني : خيرية النبي ﴿ﷺ﴾ في معاملته للأطفال

ومن أجل أن نشخص الثوابت التي تثبت بلا ريب خيرية النبي ﴿ﷺ﴾ لأهله، وكونه المثل الأعلى لتعامل الإنسان في داره ، والنموذج الأكمل لكل من ساكن ذويه وأستوطن معهم. مربياً ، مؤدباً ، رؤوفاً ، رحيماً ، عطوفاً ، رقيقاً ، بساماً ، ليناً ، فما غضب إلا الله ، وما سخط على أحد أو شمت بأحد ، ما ضرب زوجاً ، وما كدر صفو طفل ، بل كان كثير الملاعبة لأطفاله ، كثير المداعبة لنسائه ، ما ضجر منه صاحبه ، وما مل منه من عاشره ، له من الزوجات عدد يصعب على كل ذي لب وذي حكمة لو كان مثل عددهن مداراتهن ، لكن المصطفى ﴿ﷺ﴾ القرآن الذي يمشي على الأرض ، بحكمته النبوية وخلقه العظيم ، استطاع أن يعدل بينهن ، وأن يؤلف بينهن ، فلم يفضل إحدهن على ضرتها ، ولم يميز بعضهن على بعضهن ، بالرغم أن قلبه كان يميل إلى عائشة (رضي الله عنها) .

نسطر في هذا المبحث وتاليه بعض النماذج ونلتقط بعض الصور للتعامل النبوي مع الأطفال ومع نسائه ، وتجلي قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] .ونبدأها بخيرية النبي ﴿ﷺ﴾ في معاملته للأطفال :

فقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ أحسن الناس خلقاً ، وأفضل الخلق تعاملاً ، وأذا أردت أن تعاين الرحمة النبوية والرقة المحمدية في معاملة الصبيان ، فأقرأ ما قاله أنس ﴿رضي الله عنه﴾ خادم رسول الله ﴿ﷺ﴾ واصفاً معاملة الرؤوف الرحيم له ، قال أنس كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ من أحسن الناس خُلقاً فأرسلني يوماً لحاجة فقلت والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﴿ﷺ﴾ فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد قبض

(1) سورة الأنبياء : الأية (106) .

بقفاي من ورائي قال فنظرت إليه وهو يضحك فقال يأنيس أذهبت حيث أمرتك قال قلت نعم أنا ذهبت يا رسول الله قال أنس والله لقد خدمته تسع سنين ما قال لي فيها أف ولا عاب علي شيئا قط وما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا[1].

ولم تقف الرحمة النبوية عند هجر العقاب ومسامحة الطفل المذنب بل تعدت الى ملاعبتهم والتصابي لهم حتى يشعر الصبي كأنه بعمره ، فعن يعلي العامري أنه خرج مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى طعام دعوا له فأستقبل رسول الله ﴿ﷺ﴾ امام القوم وحسين مع غلمان يلعب فاراد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ان يأخذه قال فطفق الصبي هاهنا مرة وهاهنا مرة فجعل رسول الله ﴿ﷺ﴾ يضاحكه حتى اخذه قال فوضع احدى يديه تحت قفاه والاخرى تحت ذقنه فوضه قفاه على فيه وقال حسين مني وأنا من حسين احب الله حسينا سبط من الاسباط [2] .

وليس عطفه مع ابن ابنته خاصا ولكنه مع اناء المسلمين ايضا ، فهذا جابر بن سمرة يقول : صليت مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ صلاة الاولى ثم خرج الى اهله وخرجت معه فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدي احدهم واحدا واحدا ، قال : واما انا فمسح خدي ، قال : فوجدت ليده بردا او ريحا كأنما ارخجها من جؤنة عطار [3] .

وحسبك رقة قلبه ﴿ﷺ﴾ التي ارق من نسمات الهواء ، وفيض حنانه الذي أصفى من خلجات الماء ، اللذان جعلاه ﴿ﷺ﴾ يسرع في صلاة الجماعة غير مرة لسماعه بكاء طفل ، امه تصلي مأمومة خلفه ﴿ﷺ﴾ فحتى لا يشق على الصبي ولا على قلب امه جوز في صلاته ، عن ابي قتادة عن النبي ﴿ﷺ﴾ قال اني لا اقوم في الصلاة اريد ان اطول فيها فاسمع بكاء الصبي فاتجوز في صلاتي كراهية ان اشق على امه [4] .

واذا اسرع ﴿ﷺ﴾ في صلاته لاشفاقه على صبي ، فانه قد اطال سجوده ﴿ﷺ﴾ مرة وفي صلاته ايضا ، لا لشيء انما لارتحال حفيده عليه ﴿ﷺ﴾ ، عن عبد الله بن شداد عن ابيه قال خرج علينا رسول الله ﴿ﷺ﴾ في احدى صلاتي العشي الظهر او العصر وهو حامل حسن او حسين فتقدم النبي صلى الله عليم وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها قال اني رفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو ساجد فرجعت في سجودي فلما قضى رسول الله ﴿ﷺ﴾ الصلاة قال الناس يا رسول الله انك سجدت بسين ظهري

---

(1) رواه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب كان رسول الله أحسن الناس خلق ، رقمه 4272 .

(2) رواه احمد ، كتاب مسند الشاميين ، باب حديث يعلى بن مرة الثقفي عن النبي ﴿ﷺ﴾ ، رقمه 3 ، 169 .

(3) رواه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب كان رسول الله احسن الناس خلق ، رقمه 4272 .

(4) رواه البخاري ، كتاب الاذان ، من اخف الصلاة عند بكاء الصبي ، رقمه 666 .

الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا انه قد حدث امر او انه يوحى اليك قال كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان أعجله حتى يقضي حاجته [1] .

وبلغ من حبه لهم وتعلقه بهم ﴿ﷺ﴾ ان قطع خطبته وترجل من على منبره وحمل الغلامين قم رقى ﴿ﷺ﴾ بهما درج المنبر ثم استأنف خطبته ، فعن عبج الله بن بريدة قال : سمعت ابي بريدة يقول : كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يخطبنا اذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان احمران يمسيان ويعثران فنزل رسول الله ﴿ﷺ﴾ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : صدق الله : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [2] فاني نظرت الى هذين الصبيين يمسيان ويعثران فلم اصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما [3] .

هذه بعض المشاهد التي التقطت من سيرة نبي الرحمة ﴿ﷺ﴾ والتي تخبرنا عن مدى رأفته في تعامله للأطفال ولينه معهم وسعة صدره لهم . وانه ﴿ﷺ﴾ بلا منازع خيرنا لاهله .

المطلب الثالث : خيرية النبي ﴿ﷺ﴾ في معاملته لنسائه

يظن الظانون ان إنساناً ذا مكانة رفيعة في مجتمعه ، مطاعا من قبل قومه ، يهابه العدو من مسيرة كذا وكذا لا بد ان يكون تعامله مؤسسا على هذه الاعتبارات ، فاذا سار بين الناس سار سيرة الكبراء ومشي مشية الخيلاء ، واذا انقلب الى اهله انقلب وهو يتمطى ، واذا دخل مسكنه دخله مختالا فخورا ، فلا يجرؤ احد على ان يكلمه ، ولا ينبغي لاحد ان يسأله حاجة ، لا يمازح ابنا ولا يبتسم لزوجة ، الى غير ذلك من مظاهر تعظيم الذات واجلالها . لكن الرحمة المهداة ﴿ﷺ﴾ لم يكن كذلك – حاشاه – بل كان مثلا عاليا ونبراسا شامخا في تعامله مع اهله ﴿ﷺ﴾ . واول دعامة بنى عليها حياته مع نسائه هي دعامة العدل ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [4] ، ولانه اتقانا ﴿ﷺ﴾ فهو اعدلنا بلا شك .

حيث كان يعدل بينهن حتى في خروجه للسفر . وذلك بالاقراع بينهن وفي مبيته ﴿ﷺ﴾ عندهن فعن عروة ان عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ اذا اراد سفر اقرع بين نسائه ، فايتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وكان يقسم لكل امراة منهن يومها وليلتها غير ان سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﴿ﷺ﴾ تبتغي بذلك رضا رسول الله

(1) رواه احمد ، كتاب من مسند القبائل ، باب حديث شدلاد بن الهاد ، رقمه 26363 .

(2) سورة التغابن : الاية (15) .

(3) رواه الترمذي ، كتاب المناقب على رسول الله ، باب مناقب الحسن والحسين ، رقمه 3707 .

(4) المائدة : (8) .

﴿ﷺ﴾[1] . فاقراعه ﴿ﷺ﴾ بينهن شاهد ثابت لعدله ، لان عدم الاقراع افضل للزوج، اذ قد تكون احداهن في تحمل اعباء السفر والقيام على خدمته فيه ، احسن من غيرها، وقد يكون نفع احداهن في مكوثها في بيته اكثر مما في سفرها .

اما تقديره ، لزوجاته ﴿ﷺ﴾ فانه بلغ الذروة في الخلق السامي ، حتى بعد وفاة الزوجة لم ينقطع وفاؤه لها ، فعن عائشة قالت : ما غرت على نساء النبي ﴿ﷺ﴾ الا على خديجة واني لم ادركها ، قالت : واكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ اذا ذبح الشاة ، فيقول : ارسلوا بها الى اصدقاء خديجة ، قالت : فاغضبته يوما ، فقلت : خديجة ؟ .فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : اني قد رزقت حبها [2] .

واذا كان هنا قد صرح بحبه لخديجة (رضي الله عنها) ، ففي حديث آخر اتى عليها الثناء الحسن الجميل ، عرفانا منه لها بجميلها (صلى الله عليه ورضي اله عنها) ، عن عائشة قالت : كان النبي ﴿ﷺ﴾ اذا ذكر خديجة اثنى عليها فاحسن الثناء ، قالت : فغرت يوما فقلت : ما اكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد ابدلك الله عز وجل بها خيرا منها ، قال : ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها ، قد أمنت بي اذ كفر بي الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني الله عز وجل ولدها اذ حرمني اولاد النساء [3] .

وانظر مداراته لنسائه واتمالته لقلوبهن بحكمة تملا الفؤاد مودة ورحمة ، في حديث عائشة اذ تقول : كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يعطيني العرق فاتعرقه ثم يأخذه فيضع فاه على موضع فيَّ ، ويعطيني الاناء فأشرب ثم يأخذه فيضع فاه على موضع فيَّ[4]. وكذا استجابته ﴿ﷺ﴾ لطلباتهن بلا تردد او تأخير ، قالت عائشة للنبي ﴿ﷺ﴾ : كل ازواجك كنيته غيري ، قال : فأنت ام عبد الله [5] .

اما ملاطفته ﴿ﷺ﴾ لزوجاته وملاعبته لهن فذاك العجب ، خذ مثلا امر المصطفى ﴿ﷺ﴾ للناس ذان مرة وهم في سفر ، ان يتقدموا وتأخر هو عنهم، وليس ثمة خطب الا انه ﴿ﷺ﴾ رغب في سباق زوجته ، قالت عائشة (رضي الله عنها) : خرجت مع النبي ﴿ﷺ﴾ في بعض اسفاره ، وأنا جارية لم احمل اللحم ولم ابدن فقال للناس : تقدموا فتقدموا . ثم قال لي : تعالي حتى اسابقك ، فسابقته فسبقته فسكت عني ، حتى اذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت

(1) رواه البخاري ، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها ، باب هبة المراة لغير زوجها وعتقها اذا كان لها زوج فهو تعديل النساء بعضهن ببعض ، رقمه 2467 .

(2) رواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة ام المؤمنين ، رقمه 4464 .

(3) رواه احمد ، كتاب باقي مسند الانصار ، باب حديث السيدة عائشة ، رقمه 23719 .

(4) رواه احمد ، كتاب باقي مسند الانصار ، باب حديث السيدة عائشة ، رقمه 23214 .

(5) رواه ابن ماجه ، كتاب الاداب ، باب الرجل يكنى قبل ان يولد له ، رقمه 3729 .

معه في بعض اسفاره ، فقال للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعالي حتى اسابقك ، فسابقته فسبقني ، فجعل يضحك وهو يقول : هذه بتلك [1] .

وكان يحفظ مت يلقن في اثناء غضبهن او رضاهن ، ويصغه بلاطفة النسيم اذا لامس وجه البحر، فيصير الغضب الى رضا ، فعن عائشة (رضي الله عنها) ان رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان يقول لها : اني اعرف غضبك اذا غضبت ورضاك إذا رضيت ، قالت : وكيف تعرف ذلك يا رسول الله ؟ قال : اذا غضبت قلت يا محمد واذا رضيت قلت يا رسول الله [2].

هذه بعض اللمحات المنتقاة من حياة سيد الاكوان وحبيب الرحمن ﴿ﷺ﴾ ، والتي تثبت حكمته النافذة وسياسته الفذة في معاملته لنسائه وأهل بيته ، وحسن عشرته لهن على الرغم من كثرة عددهن واختلاف اصولهن وتمايز منابعهن وتباين اعمارهن وتغاير السنتهن (رضي الله عنهن) . ولما كان هو ﴿ﷺ﴾ ذا الخلق العظيم ، وانه الرؤوف الرحيم بشهادة الله تبارك وتعالى فيه . كان حقا ﴿ﷺ﴾ خيرنا لاهله .

(1) رواه احمد ، كتاب باقي مسند الانصار ، باب باقي مسند الانصار ، رقمه 2507 .

(2) رواه احمد ، كتاب باقي مسند الانصار ، باب حديث السيدة عائشة ، رقمه 22885 .

الخاتمة :

بعد الانتهاء – بحد الله وفضله – من دراسة الحديث النبوي الشريف بشقيه ، والوقوف عند عليات التلعق بين الفاظه ، وربط ذلك بما يمكن ان يكون له من اثار في حياة المسلم . نقف في خاتمة هذه عند اهم اللطائف والاشارات التي توصل اليها مسار البحث :

* ان عطفه ﴿ﷺ﴾ بقوله : ((وخياركم خياركم لنسائكم)) على قوله ((اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا)) هو من قبيل عطف الخاص على العام . حيث عطف الخيرية المتعلقة بخيرية المرء لنسائه على ايمانية المرء الكاملة المتأتية من حسن خلقه ، لان السعي نحو كمال الايمان يبدأ من البيت ، فخيرية المسلم الموصلة الى كمال الايمان المرهون بحسن الخلق ، مقرونة بخيريته مع اهله ونسائه .
* يقدم النبي ﴿ﷺ﴾ في قوله ((خيركم خيركم لاهله)) معيارا ثابتا ومقياسا دقيقا لماهية المرء (الطيبة او الخبيثة) وهو بيته ، لان الانسان في داره يظهر على حقيقته ويبين معدنه وينكشف باطنه . فدار المرء هو الكاشف لشخصيته والمظهر لبواطنه .
* كان مجيء الشق الثاني ((وأنا خيركم لاهلي)) لامرين . الاول : لتكون معاملته ﴿ﷺ﴾ لاهله المثال السامي والنموذج المتكامل للمسلم في بيته ، يتأسى به ، ويهتدي بهديه ، ويقتفي اثره ، فيتعامل مع اهله كما يتعامل مع اهله كما تعامل نبيه ﴿ﷺ﴾ من قبله فيكون بذلك قد سلك اسلم السبل وافضل الطرق الذي قاده الى الصواب قطعا . والثاني : حتى يكون المسلم متبعت لرسوله ومقلدا له حتى في المسائل الشخصية والعائلية . ثم ثمة اشارة فيه ، فكما رسم النبي ﴿ﷺ﴾ منهج عبودية المسلم في نواحي الحياة المتفرقة ، كانت له نواة في البيت ايضا يمكن ان تثبت مع الاهل مثمرة الخيرية الكاملة.
* تتجلى في معاملته ﴿ﷺ﴾ للصبيان رقة قلبه ﴿ﷺ﴾ ، يلاعبهم ويلاطفهم ويتصابى لهم ، مرة يسرع في صلاته حتى لا يشق على احدهم ، ومرة اخرى يطيل سجوده حتى لا يشق على الاخر ، فالاول كان باكيا والثاني مرتحلا . ومرة ثالثة يستأنف خطبته اشفاقا على ابنه التعثر بثوبه ويترجل من على منبره ليحمله ويكمل خطبته وهو حامله ﴿ﷺ﴾ . وغيرها كثر من صور التعامل النبوي الابوي مع الاطفال .
* ان احدنا اذا ادلهمت عليه خطوب الحياة ، اعتزل الناس حزينا ، مهموما ، شاحبا ، عبوسا لا يَرى ولا يُرى ، لا يُكلِم ولا يُكَلم . فماذا يصنع اذا من ألقى الله عليه قولا ثقيلا . وجعله خليفة في الارض ورسولا الى كافة الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور ﴿ﷺ﴾ ؟ ان النبي ﴿ﷺ﴾ بفطرته الكاملة ، كان جامعا لاكرم الخصال ، ومنبعا لاعرق الاخلاق . اعطى كلا حقه . فلا عجب ان يجتبى معلم العظماء وسيد العقلاء ليرتحله ولده ، او ان يقدم جيشه في سفر

ويتأخر هو عنهم ليسابق زوجه ، وهو الذي تهتز الاكاسرة والقياصرة له فرقا اذا ذكر بينهم . فلقد صدق فيه مولاه الحكيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. . .

* استميحك عذرا سيدي رسول الله ان تجاوزت مقامي وتحدثت عنكم فلست اهلا لذلك ولكن اقول

صلى عليك الذي اعلاك مرتبة فوق النبيين لم تدرك بحسباني
والال والصحب والاتباع ما سجعت ورق الحمام على لوحي واغصاني

*ختاما هذا ما وفقني الله اليه ، فما فيه من نفع فمنه عمّ نواله ، وما فيه من هفوات فمن نفسي وصدق اصدق القائلين : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [سورة النساء : 79] .

أسأل الله عز وجل ان يوفقنا لمراضيه وان يحشرنا مع سيد انبيائه وخير مرسليه **محمد** عليه ازكى الصلاة واعطر التسليم . والحمد لله اولا واخرا ودائما . . .

المصادر:

القران الكريم .

1. الترغيب والترهيب ، الامام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، تحقيق علي عاشور ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الاولى ، سنة الطبع 2001م.
2. سنن ابن ماجه ، ابن ماجه ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، سنة الطبع 1975م.
3. سنن ابي داود ، ابو داود السجستاني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ,
4. سنن الترمذي ، تحقيق احمد محمد شاكر ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .
5. صحيح ابي عبد الله البخاري ، شرح الكرماني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة الطبع 1981م .
6. صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .
7. مسند الامام احمد ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، سنة الطبع 1991م.